المشهد

العدد 336 – السنة الثالثة عشرة -الإثنين 7 أكتوبر 2024 م الموافق 4 ربيع الثاني 1446 هـ

قالت العرب

هل عندك شك أن دخولك في قلبي
هو أعظم يوم في التاريخ
وأجمل خبر في الدنيا
هل عندك شك فيمن أنت
يا من تحتل بعينيها اجزاء الوقت
يا امرأه تكسر ، حين تمر جدار الصوت

(نزار قباني)

عام على طوفان الأقصى .. ما وراء حسابات الربح والخسارة

صراع مركزى إقليميا وعالميا وممتد يتجاوز الجيوش المتحاربة

عام كامل مع كل هذه الصور للدمار والخراب المدفوعين بتصورات القوى الأكثر تطرفاً

هناك صراعات يصعب فيها إجراء حسابات دقيقة للربح والخسارة، أو بالأحرى لا يمكن الحكم على نتائجها بما يحققه هذا الطرف أو ذاك من الأطراف المنخرطة فى الصراع من مكاسب وما يتكبده من خسائر، ولا يخرج أى من الأطراف المتحاربة منتصراً بشكل حاسم فى حين يكون من الصعب عليهم جميعاً الإقرار بالهزيمة فى أى جولة من الجولات العسكرية المتكررة الحدوث فى مثل هذه الصراعات.

يأتى الصراع بين دول المنطقة وشعوبها وبين المشروع الصهيوني، الذى تجسده دولة إسرائيل، فى مقدمة هذه الصراعات التى تُصنَّف كصراعات اجتماعية ممتدة، تتجاوز الجيوش المتحاربة لتشمل المجتمع بأسره، وتتعدد مستوياته وتتداخل أبعاده وتتشابك. ويندرج فى تلك الفئة من الصراعات الصراع مع إسرائيل، حتى بعد انحساره إقليمياً، فى أعقاب حرب أكتوبر ١٩٧٣، وتحوله إلى صراع فلسطينى -إسرائيلي.

لا أحد يعلم أين يمكن أن تقف حدود هذه الحرب، فى ضوء الحشود العسكرية وتقاطعات المصالح الإقليمية والدولية

فى مثل هذه الصراعات، يكون من الأفضل تحليل التأثير المترتب على كل جولة من جولات المواجهة على الأطراف ومعرفة كيفية استجاباتهم للتحولات فى بيئات الصراع الثلاث، الداخلية والإقليمية والدولية، واختبار التصورات النظرية والفرضيات الأخرى المستمدة من سرديات كبرى ومدى اتفاقها مع الواقع وتغيراته ومدى اختلافها عنه، وتحليل التفاعلات فيما بين الأطراف المنخرطة فى هذا الصراع.

وقد يكون السؤال الأحرى بالبحث بعد مرور عام على الحرب التى أطلقت شرارتها عملية «طوفان الأقصى» فى السابع من أكتوبر ٢٠٢٣، ما الذى تغير نتيجة هذه الحرب أم ستكون مثل سابقتها من حروب عانى منها القطاع المحاصر منذ عام ٢٠٠٧؟ وما الذى استطاعت الأطراف المنخرطة تحقيقه من أهداف معلنة أو متصورة أو مفترضة وما لم تستطع تحقيقه؟

ربما يكون هذا التقييم فرصة، أرجو ألا تكون ضائعة كغيرها من الفرص التى ضاعت، فى خضم هذا الصراع وتاريخه الممتد، لإعادة النظر فيما كتب من تحليلات بخصوص هذه المواجهة الأحدث والأكثر دموية، وتقييم مساهمة تلك التحليلات فى تحسين رؤيتنا أو فهمنا للصراع ولقواه المحركة ورصد التغيرات التى طرأت عليه، أم أنها أدت إلى زيادة تشوش الرؤية والفهم، وقد تكون المراجعة فرصة لاختبار مدى ثبات، أو جمود، نظرتنا للصراع فى ضوء المتغيرات الجارية فى العالم وفى مجتمعاتنا، وتأثير تلك النظرة فى تحديد رؤيتنا لمسار الصراع ومستقبله وإمكانية حسمه، وتقييم محاولات تسويته، وهل هى محاولات جادة للتسوية أما أنها تندرج فى إطار إدارته لتحقيق مصالح هذا الطرف أو ذاك، وهل يفسر ذلك عجز القوى المختلفة عن تسويته على نحو يضمن التوصل لترتيبات مستقرة لفترات طويلة تساعد على التنبؤ بمساره وتطوراته، خاصة أن هذا الصراع يوصف، عادة، بأنه مراوغ وعصى على الفهم، إذ لا يوجد صراع مثله شهد مثل هذه الخلافات الجذرية بخصوص تحليل طبيعته، هل هو صراع دولى أم صراع إقليمى متعدد الأطراف؟ هل هو صراع قومى أم ديني؟ حضارى مرتبط بالسعى إلى تغيير قيم الأطراف المنخرطة فيه والثوابت التى ينطلقون منها؟ هل هو صراع وجود بين مشروعين أو أكثر، أم صراع حدود؟ هل يقبل هذا الصراع التوصل إلى حل ينهى حالة العداء القائمة ويحد من ميله للانفجار بشكل متكرر فى صورة مواجهات مسلحة، إما سعياً لتعديل مواقف أطرافه أو أملا فى التمكن من حسمه بالقوة المسلحة؟

هذه الأسئلة وعشرات الأسئلة الأخرى والمطروحة منذ بداية هذا الصراع تجددت مع حرب غزة المستمرة إلى اليوم والتى من المحتمل أن تتحول إلى حرب إقليمية أوسع قد تتطور إلى حرب عالمية. لا يوجد صراع عالمي، مثل صراع الشرق الأوسط، حظّى بهذا القدر من الاهتمام من قبل كبار السياسيين والزعماء فى العالم، وعلى المستوى الأكاديمى من قبل الباحثين والدارسين والخبراء، والذى عقدت لبحثه ومناقشة تطوراته واحتمالات تسويته آلاف الندوات والمؤتمرات الأكاديمية وورش العمل وحلقات النقاش، ولم يستحوذ صراع مثله على اهتمام وسائل الإعلام المحلية والعالمية، فى فترات مختلفة من تاريخه الممتد لقرابة ٨٠ عاما، منذ الحرب العربية الإسرائيلية الأولى فى عام ١٩٤٨، والتى سبقتها عقود طويلة من الصراع على أرض فلسطين قبل الانتداب البريطانى وأثناءه، بين السكان المقيمين وبين المهاجرين اليهود. اللافت للنظر أن هذا الصراع المستعصي على الحل، صمد فى مواجهة رياح التغيير العاتية، التى اجتاحت العالم شرقا وغربا، شمالاً وجنوباً وظلت له ملامح ثابتة لا تتغير بتغير الظروف المحيطة به وإن تبدلت مستوياته وتغيرت صوره وأدواته. ولا يوجد صراع مثله تداخلت فيه كل التناقضات الداخلية والخارجية وشهد الكثير من تبدل التحالفات حوله.

لقد كان الصراع العربي-الإسرائيلى والصراع الفلسطيني-الإسرائيلي، الذى عرف فى كثير من أدبيات الأمم المتحدة بمشكلة الشرق الأوسط، محوراً رئيسيا لدراسات الشرق الأوسط فى كثير من الجامعات والمعاهد ومراكز التفكير والبحث فى الولايات المتحدة وفى أوروبا وفى العالم العربى والتى أصدرت عدداً لا يحصى من الدراسات والتقارير والكتب، التى تناولت الجوانب المختلفة لهذا الصراع وأطلقت مئات البرامج البحثية التى جعلت من الصراع ميداناً للبحث لاختبار نظريات الصراع وتطويرها، فظهرت العديد من النماذج التحليلية والأطر النظرية لتفسير هذا الصراع فى مراحله المختلفة وفى الاشتباك مع كثير من المفاهيم التى ارتبطت به، وظهرت فى سياق هذه الدراسات العديد من التخصصات الفرعية، مثل الدراسات الإسرائيلية وتسوية الصراع وأبحاث السلام التى عقدت مقارنات بين هذا صراع الشرق وبين كثير من الصراعات الدولية، والتى تناولت مفاهيم مثل التطبيع والخصوصية، أو ظواهر مثل الإرهاب.

وعلى الرغم من كل المحاولات التى استهدفت تحويله من صراع مركزى إلى واحد من بين الصراعات العديدة التى تعانى منها منطقة الشرق الأوسط التى تعج بالصراعات منذ مطلع القرن العشرين، والتى جعلت المنطقة التى تشكل قلب العالم القديم الأكثر اضطراباً والأقل استقرارا فى العالم منذ نهاية الحرب العالمية الأولى، إلا أن تطورات الصراع وتعرجاته تثبت بما لا يدع مجالا للشك أن هذا الصراع هو محور للصراع الإقليمى وربما الصراع العالمي، وأنه صراع مركزى قد يترتب على تسويته أو حله أو حسمه الكثير من الترتيبات العالمية.

وهذه الوضعية جعلت هذا الصراع ميداناً رئيسيا لسيادة نظريات المؤامرة أو لتفسير الحوادث التاريخية من منظور المؤامرة، التى يراها البعض صهيونية، فيما يراها آخرون مؤامرة كونية كبرى. فى ظل سيادة هذه النظرية وتلك التفسيرات، جرى ربط كل الصراعات والحروب فى المنطقة وربما فى مناطق أخرى من العالم بهذا الصراع، حتى لو تكن إسرائيل طرفاً فيها، ونظر إليها كخطوة فى سبيل تحقيق المشروع الصهيونى وإقامة إسرائيل الكبرى التى تمتد من النيل إلى الفرات حسبما تقول أسطورة أرض الميعاد فى نسختيها اليهودية أو العربية، والتى كانت نقطة انطلاق لكثير من الناس عند الحديث عن أى موضوع يتصل بالصراع مع إسرائيل.

وإذا لم تعجبك النسخة الدينية لرواية المؤامرة، فهناك نسخة يسارية تتشارك فيها بعض العقائد السياسية العلمانية تضع هذا الصراع فى سياق الصراع الأممى الممتد، تاريخاً وجغرافية، ضد الرأسمالية ومشروعها التوسعى وتنظر إلى إسرائيل باعتبارها قاعدة متقدمة للإمبريالية العالمية التى تتزعمها الولايات المتحدة التى تسعى للسيطرة على مقدرات الشعوب وثرواتها، أو مخلبا لتأديب من يتجرأ على تحدى القوى الإمبريالية، ووفق هذه السردية فإن إسرائيل ربيبة الاستعمار القديم والحديث، وأى استعمار قد ينشأ. وفى كل هذه السرديات هناك الكثير جداً من الأساطير والأوهام والقليل جداً من الحقائق والوقائع، وفى ظلها، يتم التركيز على حالة الحرب المستمرة وإخفاء الممكنات الأخرى للمسارات البديلة فى تاريخ هذه العلاقة المضطربة والمعقدة، ويتم أيضاً تغليب الرؤى الكارثية التى تبشر بالخراب والدمار وتنشر صوره فى كل مكان وتحجب صوراً أخرى تشير إلى تغيرات قد تساهم فى تغيير هذا الواقع المرير إلى واقع أفضل، والغلبة فى كل هذا لمشاعر الكراهية المتبادلة بين العرب والمسلمين واليهود، والتى ترد الصراع إلى مكوناته الدينية والقومية.

عشنا طوال عام كامل مع كل هذه الصور للدمار والخراب المدفوعين بتصورات القوى الأكثر تطرفاً التى تتصدر المشهد بعدما تراجعت القوى الأكثر اعتدالا التى كان من الممكن أن ترسم صورة أخرى للمستقبل، خصوصاً بعد اغتيال رئيس الوزراء الإسرائيلى اسحق رابين الذى أراد أن يشق طريقا جديداً مغايرا للمستقبل، وحاول فى عام ١٩٩٢، التعامل مع المشكلة بشكل مباشر، مثلما فعل السادات فى عام ١٩٧٧، ولا غرابة فى أن يكون الرجلان هدفاً لقوى التطرف الدينى والقومي، الذين رأوا فيما طرحه الرجلان عقبة أمام مساعيهم للهيمنة وفرض تصوراتهم على الجماهير التى تدفع ثمن هذا الصراع، قتلا وتشريدا وتهجيرا، وهى راضية ومقتنعة بأنه ثمن زهيد من أجل الغايات العليا والأهداف السامية. ومع كل تجدد للقتال تنتعش الآمال فى أننا نشهد معركة النهاية الفاصلة وتُصَمُّ الآذان عن سماع أى قول يردد أنها جولة من الجولات التى من المرجح أن نشهد عشرات مثلها طالما استمرت القوى الدافعة لاستمرار الصراع، لكن من المؤكد أن هذه الجولة، كغيرها من جولات سبقتها، ستؤدى إلى تحولات تؤثر على تصورات الأطراف المتصارعة ومخططاتهم وأهدافهم، لكن التحولات هذه المرة قد تؤدى إلى تأثير أعمق وأبعد مدى، مما يجعل هذه الحرب علامة فارقة بين ما قبلها وما بعدها، مما يستدعى البحث عن إطار جديد ومنظور جديد نرى من خلاله الصراع.

نحو منظور جديد

انطلقت هذه الجولة، وهى المواجهة العسكرية الأطول فى تاريخ الصراع، بعد هجوم «طوفان الأقصى»، بقيادة حركة المقاومة الإسلامية (حماس) وفصائل فلسطينية أخرى متمركزة فى قطاع غزة، والتى كانت تجهز لمعركة تتطلع لأن تكون شرارة لحرب أوسع تشارك فيها أطراف أبعد تنتهى بتحرير القدس، والقضاء على دولة المشروع الصهيوني، ليُكتب فصل جديد فى تاريخ المنطقة. وفتحت هذه الحرب الباب واسعاً أمام أسئلة كبرى بخصوص المستقبل وكيف سيكون.

الرأى السائد لدى الجانبين أن هذه الجولة يجب أن تكون مختلفة عما سبقها، إذ يرى كل طرف أنها فرصة حسم الصراع لصالحه أكبر، نظراً لاختلاف طبيعة هذه المواجهة والاستعداد لها والقوى التى احتشدت بسببها. ولا شك أن هجوم السابع من أكتوبر ٢٠٢٣، هو لحظة فارقة فى هذا الصراع، من زاوية سعى كل طرف لتغيير المعادلة. وفى ظل هذا الانشغال الشديد بتغيير الواقع، كان لا بد من وقفة ما لتفسير الواقع وفهمه للوقوف على ممكنات هذا التغيير ومساراته، ولتحليل مواقف وأهداف القوى الساعية للتغيير، وفى أى اتجاه تمضي.

كان لا بد من وقفة نحلل فيها الحاضر لاستشراف المستقبل وكيف سيكون شكله، ومن المهم أن يكون هذا التحليل متحررا من السرديات المشحونة بالنبوءات ومن التمنيات والرغبات والصور النمطية والتصورات المسبقة المبنية على تصورات محددة للصراع تتجاوز حدوده الواقعية والفعلية، وأن يسعى التحليل لتقديم منظور جديد للصراع يساعدنا على فهم اللحظة واستيعابها ويزودنا، فى الوقت نفسه، بأدوات تمكننا من تطوير بدائل لما يسعى المتطرفون لفرضه على شعوب المنطقة، وهو ما حاولته فى سلسلة المقالات المنشورة من خلال جريدة المشهد تحت عنوان ثابت هو «حرب غزة ٢٠٢٣».

وظفت فى هذه المقالات كل ما تراكم لدى من معرفة عن هذا الصراع وتاريخه، وهى معرفة لم تتكون فقط من خلال فترة فى حياتى المهنية عملت خلالها عن قرب مع مناضل مصرى وأستاذ جليل هو الدكتور رؤوف نظمى (محجوب عمر) فى مكتب مركز التخطيط الفلسطيني، وإنما أيضا من خلال نشاطى فى لجنة الدفاع عن الثقافة القومية، التى شكلها نخبة من المثقفين المصريين فى مطلع الثمانينات، رداً على محاولات العبث بمقومات ثقافتنا الوطنية وركائزها، فى أعقاب معاهدة السلام المصرية – الإسرائيلية عام ١٩٧٩، ونشاطى فى اللجنة المصرية لدعم الانتفاضة الفلسطينية التى تشكلت لمساندة أطفال الحجارة فى انتفاضتهم ضد جنود الاحتلال فى القدس وفى الضفة الغربية المحتلة وفى قطاع غزة، والتى غيرت نظرة العالم للمشكلة الفلسطينية من مشكلة لاجئين إلى شعب يكافح من أجل حقه المشروع فى تقرير مصيره وإقامة دولته المستقلة، وأيضا من خلال نشاطى البحثى والصحفى واتصالى المباشر بشخصيات فاعلة ومؤثرة فى هذا الملف، ومن خلال متابعة كل ما يصدر من تقارير ودراسات حول هذا الصراع والقضايا المرتبطة به. والأهم أننى وظفت معرفتى بالتطورات داخل إسرائيل والتى كنت اتابعها متابعة دقيقة عن كثب وكذلك معرفتى بتفاصيل ما يدور فى الأراضى الفلسطينية المحتلة من خلال عملى لنحو ثمانى سنوات محررا ومترجما لبعض إصدارات مكتب تنسيق الشؤون الإنسانية فى الأراضى الفلسطينية المحتلة التابع للأمم المتحدة.

لم اكتف فى هذه المقالات بالتعليق على ما يدور من أحداث وما يصدر من تصريحات تعبر عن مواقف الأطراف المنخرطة فى الصراع والمعنية به، وانما انصب اهتمامى الأساسى على محاولة فهم التغيرات التى جرت فى البيئة الداخلية والإقليمية والدولية، وتحليل المواقف وردود الفعل الإقليمية والدولية، ومحاولة الإجابة على بعض الأسئلة المثارة خلال هذه المواجهة واحتمالات تطور هذا الصراع ومساراته الممكنة والمتخيلة. وانصب اهتمامى أيضاً على مناقشة المنطلقات الفكرية والنظرية لمواقف الأطراف المنخرطة فى الصراع والخبرات الإقليمية والدولية فى التعامل معه، ونقد السرديات الحاكمة له وما يرتبط بها من رؤى وتصورات ونبوءات. وحاولت تفسير استعصاء هذا الصراع على الحل. ولم أهتم فقط بالموضوعات التى يركز عليها الإعلام الدولى والمحلى والأسئلة التى تشغله، وإنما انشغلت أيضا بالمسكوت عنه، وبالتطورات التى تجرى فى صمت والتى قد تفاجئنا بواقع جديد وبأوضاع جديدة يتعين علينا التعامل معها. ويستند المنظور الجديد الذى سعيت لتطويره من خلال المقالات إلى عدد من الفرضيات التى حرصت على اختبارها، كلما تيسر ذلك، من خلال نقاشات مع وجهات النظر المختلفة بشأن هذا الصراع الذى أصبح شاغلاً للجميع فى المنطقة وخارجها. ولم أتناول بعد بالتفصيل بعض تلك الفرضيات.

نهجان لإدارة الصراع

أولى هذه الفرضيات يتعلق بإمكانية وفرص تحقيق مصالحة بين نهجين لإدارة الصراع مع إسرائيل، تبلورا قبل طوفان الأقصى، مباشرة، فى محورين متنافسين دوما، ومتصارعين أحياناً، هما: محور أنصار التسوية السياسية والسعى لإدماج إسرائيل فى المنطقة من خلال تطبيع العلاقات معها. وحقق تقدماً فى مساحات جديدة بعد توقيع الاتفاقيات الإبراهيمية فى الأسابيع الأخيرة فى ولاية الرئيس الجمهورى دونالد ترامب فى عام ٢٠٢٠. المحور الثانى هو محور المقاومة والذى تقوده إيران. تستند فرضية المصالحة بين النهجين على ضرورة عدم تجاهل المكاسب التى تحققت خلال «عملية السلام» فى الشرق الأوسط، والتى تركز على جهود التسوية السياسية والسلمية، بدءاً بمبادرة الرئيس السادات فى نوفمبر عام ١٩٧٧، وزيارته التاريخية للقدس وخطابه أمام الكنسيت، ثم عملية مدريد للسلام فى عام ١٩٩١-١٩٩٢، برعاية أمريكية فى أعقاب حرب الخليج الثانية عام ١٩٩١، واتفاقيات أوسلو عام ١٩٩٣، وأخيراً الاتفاقيات الإبراهيمية، وما تخللها من اتصالات ومفاوضات، لكن الفرضية لا تتجاهل، أيضاً، أهمية استمرار مقاومة الاحتلال الإسرائيلي، بكل الوسائل المشروعة، وفضح ممارساته وأساليبه، وتصعيد الضغوط الخارجية عليه بتدشين تحالفات دولية إقليمية داعمة للمقاومة.

هناك مخاطر ناجمة عن الصراع بين النهجين واستبعاد أحدهما لصالح الآخر، ومخاطر أخرى ناجمة عن الانحراف بأى من هذين النهجين عن الهدف المتمثل فى إنجاز الحقوق المشروعة للشعب الفلسطينى وتتويج نضاله وتضحياته من أجل قضيته العادلة، سواء بالتوصل إلى تسويات على حساب هذه الحقوق وعلى حساب الفلسطينيين، أو باستغلال المقاومة المسلحة والقضية الفلسطينية لتحقيق طموحات إقليمية أخرى على حساب الشعب الفلسطينى أيضاً. لقد عانت القضية الفلسطينية كثيرا، منذ حرب عام ١٩٤٨، نتيجة لشعار أنها «قضية العرب المركزية»، الذى حولها إلى موضوع للصراع على السلطة داخل البلدان العربية، أو على النفوذ الإقليمى وكان دافعاً لفرض وصاية على الشعب الفلسطينى وقيادته السياسية وفرض شروط لدعم الكفاح المسلح. وأدى هذا النهج إلى مآس انتهت بطرد المقاومة الفلسطينية من الأردن فى عام ١٩٧٠، ثم من لبنان فى عام ١٩٨٢، ولم يكن أمام القيادة الفلسطينية من بديل سوى استثمار ما أحدثته الانتفاضة الفلسطينية التى اندلعت فى ديسمبر عام ١٩٨٧، لتحقيق مكاسب من خلال التفاوض المباشر. وجرى استغلال المقاومة الفلسطينية، أيضاً، لفرض الهيمنة السورية على لبنان بعد اندلاع الحرب الأهلية فى عام ١٩٧٤، واستغلها الزعيم العراقى البعثى صدام حسين لتبرير احتلاله للكويت عام ١٩٩١، بعد انتهاء حربه التى دارت ثمانى سنوات مع إيران، والتى لم تخل أيضا من مزايدات على القضية الفلسطينية.

وأدى الخلاف بين النهجين إلى انقسام فى العالم العربى بعد زيارة السادات للقدس، قادته جبهة الصمود والتصدى بزعامة العراق وسوريا وبمشاركة سعودية، فى محاولة لعزل مصر عن محيطها العربي، بدعوى رفض نهج التسوية والتمسك بمقررات القمة العربية فى الخرطوم بعد حرب يونيو ١٩٦٧، التى تنص على أنه لا اعتراف بإسرائيل ولا صلح ولا تفاوض معها. واستمر هذا الخلاف حتى منتصف الثمانينات لكنه بدأ يضعف بتأثير من حرب لبنان عام ١٩٨٢ وما أحدثته من نتائج، والحرب العراقية – الإيرانية والدعم المصرى للعراق، واستعادت مصر، خلال الحربين، دورها فى العالم العربى وبدأت تحدث تخلخلا فى جبهة الصمود والتصدى وزعماءها الذين وقفوا عاجزين أمام الاجتياح الإسرائيلى للبنان، والذين لم يحدثوا أى فارق فى ميزان القوة العسكرى مع إسرائيل، واستغلوا قوتهم العسكرية إما لحسم صراعاتهم الداخلية على السلطة أو فى مواجهة خصوم إقليميين آخرين.

والأخطر أن هذا الانقسام هو السبب الجذرى للانقسام الفلسطينى – الفلسطينى الذى وظفته إسرائيل لتحقيق مصالحها ولإدارة الصراع مع الفلسطينيين. وتسبب هذا الخلاف أيضا فى تعطيل وضع سياسات ومقاربات لتطوير تيار فى إسرائيل مرتكز إلى فلسطينى الداخل الذين تطوروا سياسياً للتأثير على المعادلة السياسية داخل إسرائيل وداعم لإنهاء الاحتلال والتوصل لاتفاق مع الفلسطينيين، ونتيجة لذلك تمكن التيار اليمينى المتشدد من السيطرة على السلطة فى إسرائيل وتفكيك معسكر السلام واليسار. وكانت عملية طوفان الأقصى بمثابة رصاصة الرحمة التى أطلقت على ما كان يعرف بالحمائم أو معسكر السلام فى إسرائيل، والذى كان يحتضر بفعل الضربات المتلاحقة من قوى اليمين عقب انتعاشه بعد اتفاقية أوسلو. ولا نعرف بعد ما هو مصير الجماعات اليهودية الكثيرة التى نشأت نتيجة للتعايش اليهودى العربى والمناهضة للاحتلال والسياسات التوسعية وممارسات الاحتلال فى الضفة الغربية وغزة، وكانت هذه الجماعات التى تقدر بالعشرات مصدراً رئيسياً للمعلومات عن الانتهاكات الإسرائيلية فى الأراضى المحتلة، ولعب بعضها، مثل منظمة «بتسيلم»، دوراً فى مقاطعة منتجات المستوطنات فى دول الاتحاد الأوروبي، من خلال القوائم التى تصدرها وتوزعها على دوله.

أشار مراقبون إلى أن أحد الدوافع الرئيسية المحتملة لهجوم طوفان الأقصى هو إحباط توسع الاتفاقيات الإبراهيمية لتشمل السعودية، وذهب البعض إلى تصويرها كما لو كانت جزءاً من خطة إيرانية لإحباط هذا النهج ولردع الدول الخليجية التى أبرمت اتفاقيات مع إسرائيل، رغم رسائل وردت من طهران بأنها لا تمانع فى تركيز هذه الاتفاقيات على العلاقات الاقتصادية، رغم إدانتها، وعلى ألا تستخدم لتشكيل محور إقليمى مناهض لها. لا خلاف على أن هذه الاتفاقيات التى سارت وفق منهج نتنياهو المرتكز على فكرة «السلام مقابل السلام»، بدلا من فكرة «الأرض مقابل السلام»، أثرت على فرص إيجاد حل عادل للقضية الفلسطينية رغم أن هذا الحل أحد الشروط الرئيسية التى وضعتها السعودية لإبرام اتفاق تطبيع مع إسرائيل. لكن المخاوف الفلسطينية تزايدت مع بدء التفكير فى مشروعات مثل المشروع الهندى لطريق التجارة الجديد الذى يربط موانئ دول الخليج العربية بموانى إسرائيل عبر طريق برى يمر عبر الأراضى السعودية والأردن.

على الرغم من التعايش بحكم الأمر الواقع بين النهجين، إلا أن غياب حوار بينهما كان له تأثير سلبى على القضية الفلسطينية وعلى تحسين إدارة الصراع مع إسرائيل، ومن شأن هذا الحوار أن يهيئ المجال لتغيير المعادلة الاستراتيجية للصراع فى الشرق الأوسط، بما يفيد دول المنطقة، وربما كان التقارب السعودى الإيراني، الذى بدأ بمبادرة صينية قبل أسابيع من طوفان الأقصى، مقدمة لمثل هذا الحوار، الذى لا يزال ضروريا، لا سيما للتأثيرات فى الترتيبات المتصورة على المستوى الفلسطينى والإقليمى بعد انتهاء الحرب، فضلاً عن تأثيره المباشر.

أشرف راضي